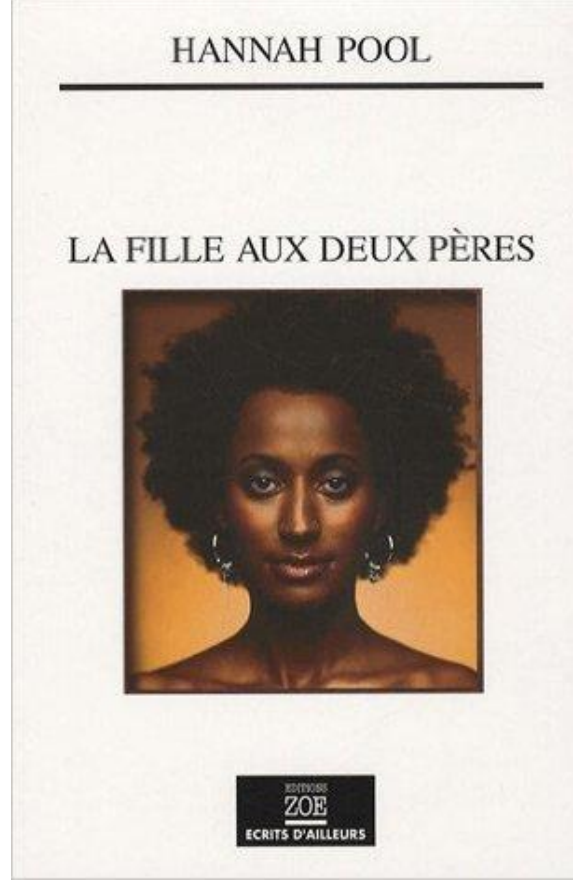


حنا بوول أم ازيب اسرات
رحلة البحث عن الجذور



بقلم : د.احمد حسن دحلي

صدر قبل عقد كتاب السيرة الذاتية للصحفية الارترية في جريدة الجاردين البريطانية حنا باوول عن دار بينغان بوكس في 2005 وترجمته الى الفرنسية في 2007 كاترين تيمان ونشرته دار زوي السويسرية.، ويمكن الحصول على النسخة الانجليزية عبر امازون. ولكن بعض الفقرات التي قرأتها الكاتبة الارترية عن كتابها بالإنجليزية في ندوة خصصت لها كانت مباشرة وبليغة ومفعمة بالمشاعر الفياضة، وان المترجمة نقلت هذا السيرة الشخصية بصورة مبدعة وخلاقة لدرجة انك لا تشعر مطلقا بأنك أمام كتاب أو نص مترجم، سيما وان أسلوب الكاتبة يعكس بل يجسد اعماق المشاعر الانسانية في جميع حالاتها الصاعدة والهابطة

والمترددة والمتأرجحة.

وبحكم ان كل حكاية انسانية لها طعمها الفريد وخصائصها المميزة في النزوع والافول وفي حالات بين الحالتين، فإن قصة أزيب اسرات بدأت بداية مأساوية في احدى القرى الارترية الصغيرة جدا والنائية للغاية في اقليم عنسبا. عندما فتحت ازيب عينيها على العالم لأول مرة توارت امها عن الوجود بعد ساعة واحدة من ذلك مغمضة عينيها الى الأبد، وان والدها الفلاح وجد نفسه محفوف بخمسة اطفال وشعر بأن الوليدة الجديدة ستكون عليه عبئا ثقيلا لا يطاق، أ، فوضع مصير الطفلة الرضيعة في 31 مايو 1974 بين ايدي دار اليتامى في اسمرا وعمرها لا يتعدى تسعة وعشرون يوما فقط، وقلبه جريح الجناحين على فقدان زوجته هددت وهروبه عن تحمل مسئولية تربية ورعاية ابنته، وترك مستقبل ازيب الى المجهول. ولم تمض ستة اشهر على حياة ازيب من دون أب يرعاها وام تحتضنها واخوة واخوات يحفونها بالحب واللهو، حتى اتى الكاتب البريطاني ديفد بول وزوجته الامريكية ماريا في زيارة تقديية الى دار اليتامى ، و عندما علما بأن ازيب بلا أم ولا أب، لم يترددا في تبنيها واطلق عليها اسم حنا - أزيب - بول، وذهبا بها الى السودان حيث موقع عمل بول حينذاك كأستاذ في جامعة الخرطوم.

وبعد اربع سنوات رحلت ماريا والدتها بالتبني لكي ترسي حنا أو أزيب في ميناء نرويجي صغير اسمه استافنجر تولت رعايتها اسرة صديقة لوالدها بالتبني لحين ما يرتب وضعه المعيشي في بريطانيا. ووعدها بأن حياتها في النرويج بعيدا عنهم لا تزيد على بضعة اشهر محدودة، ولكنها امتدت لعامين كاملين، بحيث ان حنا الطفلة الذكية جدا تعلمت اللغة النرويجية قبل ان يستقر المقام بها مع ابيها في شمال غرب بريطانيا، وتحديددا في مدينة مانشستر. وفي الايام الاولى للدراسة كان عليها تعلم لغة شكسبير لمواصلة دراستها ولكي تتأقلم مع محيطها البريطاني، ولكنها وفي ايامها البريطانية الاولى كانت ترد بالنرويجية على كل من يخاطبها أو يشاكسها من الاطفال في سنها، وكان تلاميذ مدرستها يستغربون من اللغة التي ترد بها عليهم قائلين انها تتكلم رطانة افريقية غريبة.

ومرت الايام ودارت السنوات ونالت ارتريا حريتها، وذهب والدها بالتبني ديفد

بوول الى اسمرا تلبية لدعوة رسمية من الحكومة الارترية لمشاركة الشعب الارتري فرحة استقلاله في 24 مايو 1993، وذلك تقديرا لدوره الكبير في التعريف بشرعية وقانونية وعدالة النضال الارتري ضد المستعمر الاثيوبي وأعوانه. ونذكر من ضمن مؤلفاته " ارتريا اطول حرب تحرير في افريقيا " وارتريا " من الثورة الى الدولة "، هذا فضلا عن العديد من المقالات والدراسات التي سطرها كصديق عن ارتريا بلدا وشعبا وثورة وتاريخا. وحرص ديفد بوول ان يسجل زيارة الى دار اليتامي في اسمرا، وكم كانت مفاجآته كبيرة عندما وجد الاخت غابريلا حية تشرف على الدار وهي التي تولت مهمة تبنيه لأزيب أو حنا قبل تسعة عشر ربيعا، فقدم لها هدية تذكارية لا تعدو ان تكون مجرد صورة ابنته بالتبني في ريعان شبابها. وبعد مرور عدة اشهر على عودة ديفد بوول الى لندن حمل اليه ساعي البريد خطابا من اسمرا وفي طيته رسالة الى حنا باوول، وتزامن وصول الرسالة من ارتريا مع قدوم أزيب من ليفربول حاملة معها وبفخر دبلوم في علم الاجتماع من جامعة ليفربول.



أزيب اسرات

ولكم كانت دهشة حنا كبيرة ان تأتيها رسالة من ارتريا حيث لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا قريب أو هكذا كانت تعتقد لغاية تلك اللحظة الفاصلة والحاسمة. وما ان فرغت من قراءة الرسالة حتى فقدت صوابها ولم تعد تصدق ما ورد في الخطاب الذي قرأته غير مرة لتكتشف ولأول مرة منذ زهاء عقدين بأنها ليست فرعا من دون شجرة ، وشجرة بلا وجذور، وانما لها أب يدعى أسرات واخوات واخوان وعشرات من الاقارب المباشرين. وهذه الرسالة اثارَت في نفسها العديد ومن الاسئلة والتساؤلات الحائرة والمحيرة حول اسباب حرمانها من حياة الطفولة العادية وسط الاسرة وبين الاخوة والاقارب، سيما وانها لا تظل تعاني من ذلك الحرمان وبمرارة، ولماذا وكيف اصبح مصيرها بين ايدي دار اليتامى في اسمرا واسرتها واقاربها على قيد الحياة. ولكن وبالمقابل ربما ان ظروف والدها البيولوجي لم تكن تسمح له بتولي العناية الكافية بها، ولو انها لم تكن في دار اليتامى لما نالت هذه الفرصة من التعليم وتصبح احد افراد الطبقة البرجوازية اللندنية، والعديد من الافكار الواقعية والسريالية غدت تتزاحم وتتداخل وتتقاطع وتتشابك وتتناقض في ذهنها ومخيلتها وفي منطقة متأرجحة بين الوعي والهلوسة. هذه الرسالة التي وقعت كالصاعقة في نفس أريب الشفافة والرقيقة احتفظت بها في مكان خاص وقريب منها لمدة عقد كامل من دون ان ترد عليها وعلى اخيها الذي يبحث عن اخته الذي افتقدها، رغم إنه لم ولا يعرفها، ويرغب وبلوغة أن يتعرف عليها.

ودائما أبدا ما كانت اريب تعاود قراءة تلك الرسالة الاسطورة جايدة لفك طلاسمها، طورا محملة نفسها ما لا تحتمل، أي الشعور بالذنب بحرمان والدها البيولوجي من زوجته واخوانها واخواتها من والدتهم، وتارة متهمة والدها الذي تخلص منها وحرمها من لذة ومتعة الطفولة ولهوها، ومرة معتبرة نفسها انها مجرد افريقية سوداء بريطانية الثقافة تجري في عروقها دماء ارترية، وان والدها هو ديفد بوول من دون لف أو دوران وبلاش وجع دماغ. ومع ذلك لم تكن قادرة على كبح الرغبة الدفينة والمتأججة في نفسها كالبركان المكبوت لإكتشاف البلد الاصل ومعرفة الاب البيولوجي والتعرف على الاخوات والاخوان واستنشاق نسيم ارتريا مرة اخرى بغية اكتشاف الذات بحثا عن الاستقرار الذهني والتوازن النفسي والعثور على جذور الهوية الموجودة في المنزلة بين المنزلتين البريطانية والارترية، بعيدا عن مظاهر

الانسلاخ وحالات الاغتراب. وفي خاتمة المطاف، وبعد مضي عشر سنوات على تلك الرسالة التي لم ترد عليها، حزمت أمرها وقررت الذهاب الى أرض مهد الجذور- ارتريا - وتتنازعها حالة من التوجس من اللقاء الاول مع اسرتها، ورغبة داخلية عارمة لمعرفة اصولها مهما كانت العاقبة، وندم وعدم ندم على قرارها المكتظ بالعديد من الاستفهامات والمحفوفات بالمفاجآت المفتوحة في وجه جميع الاحتمالات. ومع هبوط الطائرة في مطار اسمرأ بدأت رحلة مجابهة الواقع ومعرفة الحقيقة ومواجهة افراد الاسرة وجها لوجه. فبدأت الرحلة الصعبة مع استحالة فك شفرة اللغة حيث انها لا تعرف الا كلمات معدودة من التجربيا ثم اشكاليات التأقلم مع العادات والتقاليد الارترية العتيقة لكونها من قرية نائية بعيدة عن مظاهر المدنية في اسمرأ وغيرها من المدن الارترية، وهي البريطانية الثقافة حتى النخاع. بيد انها حرصت على عدم صدم اسرتها بمظهر ملابسها اللندنية، فأختارت البنطلون الواسع والثوب الطويل ، ولكنها لم تنتبه الى شعرها وتسريحتها " الافروية " على طريقة انجيلا ديفيز الى حد ما، وهذا ما اثار انتباه والدها البيولوجي الذي لم يفهم سبب عدم تسريح شعرها وتركه ينمو على عواهنه!

والفتاة البريطانية الثقافة مظهرها وجوهرا، لم ترد ان تترك أي شيء للصدفة، وشرعت وعلى الفور بالبداية من البداية ، فهي لم تهوول الى اسرتها الارترية، بل حرصت على وضع النقاط على الاحرف، فقصدت مباشرة دار اليتامى وحصلت على ملف قبولها فيه قبل نحو عشرين سنة، واحتوى على المعلومات التالية:

اسم الجد: مدهن

اسم الام: هدنت زرؤوم.

الاهل: [الاحياء - الموتى - المفقودون] أثنتيهما موتى.

المدينة: كرن

الاقليم: عنسبا

القرية: بيكسشمونوك

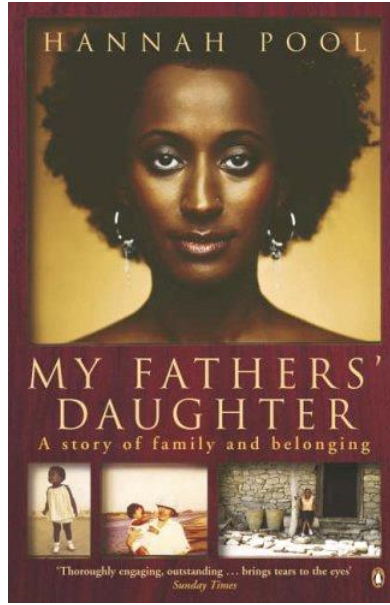
الجنس: انثى

الديانة: ارتودوكس

العمر: 29 يوما

تاريخ القبول: 31 - 5 - 74.

السماح بالمغادرة، التاريخ والسبب: 21 - 10 - 74. [لا سبب]



الآن وقد حصلت ولأول مرة في حياتها على معلومات اولية واساسية عن سيرتها الذاتية ، لم يبق امامها إلا الذهاب لمقابلة جميع افراد اسرتها، وما ان طرقت قدميها ابواب عتبة المنزل وطرقت الباب ثم اطلت بقامتها الطويلة والرشيقة وشعرها الطاغى على جسدها النحيف، وابتسامتها الخجولة التي تخفي ما تخفي من تساؤلات وتوجسات ورغبات حقيقية ومتخيلة، سرعان ما تبددت وسط زحمة زغاريد افراد اسرتها والتي انطلقت من كل حذب وصوب وتحولت الي سيمفونية رائعة وساحرة تفيض بالحب والمودة والسعادة، واحتضنها والدها برقة وحنان مبللين بدموع الفرح والبهجة ولقاء بعد فراق دام نحو ثلاثين عاما، وهي الفترة الزمنية الفاصلة بين الطفلة الرضيعة التي تركها وعمرها لا يتجاوز 29 يوما، وها هي الان وقد بلغ عمرها 29 سنة وهي تحمل شهادة من ارفع وارقى الجامعات البريطانية وتعمل في

احدى كبرى الجرائد اللندنية ذات انتشار دولي واسع. وما إن فرغ من تقديمها في اجواء الفرحة العارم الى اختها الكبرى تمنيت واخوها الاكبر استفانوس واخويها مدهني وزيمكئيل، سرعان ما أنطلق الحديث بين افراد الاسرة لمعرفة ما اذا كانت ملامحها اقرب الى هذا أو ذاك من افراد الاسرة. ولكنها قررت بينها وبين نفسها ان لون بشرتها الفاتح اقرب الى زيمكئيل ولها ابتسامة تمنيت وانها تشبه بصورة عامة لإستفانوس. فقالوا لها صحيح لك نفس لون بشرة زيمكئيل، وبصورة عامة فأنت تشبهين اكثر هيمان. ولكن وبحكم ان احدا لم يقدم لها هيمان، فتساءلت بينها وبين نفسها حائرة من هي هيمان، ثم اردفت تقصدون والداتي هدئت. ثم شرعت تحقق وتتفحص الوجوه لكي تتأكد ما اذا كانت لم تتعرف بعد على هيمان، وهنا خيم صمت مدقع ومريب قطعه والدها ملمحا لأحد ابنائها ان يحكي لها القصة التي لا تعرفها، فقال لها لنا اخت اخرى اسمها هيمان وانت تشبهينها اكثر من أي واحد آخر. واخنتنا هيمان قدمت روحها فداء للوطن وسقطت شهيدة في عام 1984 في معارك التحرير ولم يتعد عمرها سبعة عشر ربيعا.

بعد هذا التقديم سريع لهذه لسيرة حنا أو أزيب الذاتية يجدر تسجيل اربع ملاحظات اولاً : الملفت للانتباه ان حنا باوول أو ازيب اسرات تكيفت وبقدرة فائقة وعجيبية مع حياة القرية الارترية وهي ذات الثقافة البرجوازية البريطانية ليس في قطع الطريق الوعر سيراً على الاقدام وعلى مدى ساعات للوقوف على المنزل المتواضع وشبه المهجور الذي رأت فيه النور لأول مرة، بل النوم تحت لألة القمر واشراقات النجوم ونهيق الحمير وزقزقة الدواجن ونباح الكلاب وعواء الذئاب. ثم عادت الى لندن والى حياتها الخاصة والعامة وهي وقد تغيرت بصورة راديكالية، ولم تبادل على مقابلة اصدقائها وزميلاتها وتفادت الرد على مكالماتهم الهاتفية لغاية ما تجد توازنها النفسي. وقبل ان تنهي السطر الاخير من كتاب سيرتها الذاتية حرصت المؤلفة على البوح بأنها غدت تفتقد ارتريا وتحن الى اسرتها، واعدة بأنها ستعود الى ارض الجذور، وعلمت انها وفت بوعدھا.

ثانياً : يقع الكتاب 293 صفحة من الحجم المتوسط ويحتوي على ثلاثين فصلاً. العنوان الانجليزي للكتاب هو " بنت والدي "، بينما العنوان الفرنسي هو " فتاة لها

ابوان"

ثالثاً: لم يحظ الكتاب بالقراءة والمتابعة النقديتين اللذين يستحقهما سواء من قبل الناطقين بالإنجليزية أو بالفرنسية، فما بالك باللغات الارترية.

رابعاً: الكتاب جدير بالترجمة الى التجرنيا والعربية وبقية اللغات الارترية الاخرى، لكونه يجسد تجربة ارترية ثرية ذات بعد انساني عميق، علاوة على ان اسلوب الكتابة سلس ورشيق ومباشر وسهل وممتنع في نفس الوقت.